حديث فى التصوف

للأستاذ حسن كامل الملطاوى

وكيل وزارة الخزانة

أخرج مسلم والترمذى عن حنظلة ابن الربيع الأسيدى كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنه قال :

« لقينى أبو بكر رضى الله عنه ، فقال كيف أنت ؟ فقلت نافق حنظلة، فقال سبحان الله ما تقول ، فقلت نكون عند النبى صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة كأنا نراهما رأى عين فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ونسينا كثيراً قال والله إنى لأجد مثل هذا فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرا له ذلك فقال: والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى ، وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات » .

وترون من هذا الحديث أن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لها على الأرواح إشراق ما بعده إشراق ، وليس مع الإشراق إلا النور أو لم يخاطب الله حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ـ صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا النور الروحى الذى ورثه الصحابة عن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ورثوه لمن بعدهم جيلا بعد جيل ، وهذه العملية تسمى ميراث القدم المحمدى أو إن شئت فسمها عملية التلقين ، وهى أشبه بعملية الاختمار التى يستعان فيها بعجين سابق فى عجين لاحق حتى يصح نضجه (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم)

ولسنا فى حاجة إلى أن نبين أثر الميراث الروحى لأنكم تعلمون كيف

انتشر الإسلام فى المشارق والمغارب انتشار النور فى الظلمات فعمها فى أوسع أفق وأضيق وقت . ولولا الميراث الروحى الذى يهدى به الله من يشاء ما حولت الرسالة المحمدية مجرى التاريخ فى أقل من ربع قرن وهى مدة تكاد لا تكفى الواحد منكم لتعليم ولده وتربيته تربية إسلامية صحيحة مع توفر الأساس فى عقيدته وهو أساس التوحيد وقد قال تعالى :

« واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ،

وقال أيضاً :

« يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . »

ولا أدل على الميراث الروحى من أن مهبط الوحى يثير نشاطاً فى الروح يدركه كل من حج بيت الله أو تشرف بزيارة حبيبنا المصطفى وجلس إلى جواره ، وأقسم أنى أقرأ كتاب الله فى بيت الله الحرام أو فى مسجد رسول الله فكأنى بدلت روحاً غير روحى وكأن القرآن ينزل على قلبى غضاً كأول عهده .

والرائى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام تهتز روحه اهتزازاً ويتحول فى حياته تحولا كليا وكثيراً ما تحول الراءون من حال إلى حال لم يكن لهم بها عهد ولا أمل .

ولولا الميراث الروحى ما زاد الإيمان ولا نقص ، ولولا الميراث الروحى ما تفاضل المؤمنون ولما كانوا من درجات ثلاث كما تدل الآية الكريمة

« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير »

وقد قال إمامنا البخارى رضى الله عنه : حضرت العلم عن ألف وثمانين شيخا كلهم أجمعوا على أن الإيمان علم وعمل يزيد وينقص .

ثم إن الصحابة رضى الله عنهم وقع عليهم العبء الأكبر فى حماية عقيدة الإسلام ونشر دعوته فلم يتفرغوا لتدوين العلم ، وإنما كانت صدورهم أوعية له ، لا بل إن القرآن الكريم لم يجمع كله إلا فى خلافة الصديق رضى الله عنه وذلك بمشورة

من سيدنا عمر ، وتفصيل ذلك ما رواه البخارى عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنى أرى أن تجمع القرآن قال أبو بكر فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيت الذى رأى عمر ، قال زيد وعنده عمر جالس لا يتكلم فقال لى أبو بكر ، إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر ، ومن هذه الصحف نسخت المصاحف فى عهد سيدنا عثمان رضى الله عنه .

وكذلك الحديث كان فى صدور حفظته من الصحابة حتى أخذه عنهم الرواة ودونه أئمة الحديث فيما بعد فى القرنين الثانى والثالث للهجرة .

وكذلك فى الفقه كان الصحابة يستفتى بعضهم بعضا ولا يرى الواحد منهم بأسا فى أن يسأل غيره عن نص من كتاب أو سنة فيما يعرض عليه من حوادث ، قال مسروق : رأيت مشيخة رسول الله يسألون عائشة فى الفرائض وكانت القضية تنزل بأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فيقضى فيها بما علم من كتاب أو سنة فإن لم يجد سأل من بحضرته من الصحابة فإن وجد عندهم علما بها رجع إليه وإلا اجتهد برأيه ، وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم فى كثير من المسائل يجمعون الصحابة ويعرضون عليهم ما أشكل

عليهم أمره لعل بعضهم يكون عنده حديث أو علم من الكتاب ويتناقشون فى الأمر ، وعلى ضوء هذه المناقشة يفصلون فى الموضوع . وكان عمر وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت يستفتى بعضهم من بعض ، وكان على وأبى بن كعب وأبو موسى الأشعرى يستفتى بعضهم من بعض ، وذكر ابن القيم أن الفتوى حفظت عن أكثر من مائة وثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين رجل وامرأة

وكما أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يتفرغوا لتدوين الحديث والفقه لانتشار العلم والعمل والميراث الروحى فيما بينهم ولسهولة الرجوع إلى بعضهم البعض فيما يشكل عليهم من المسائل ولانشغالهم بالجهاد فى نشر الدعوة الإسلامية ، فإنهم بالمثل لم يدونوا شيئاً من علم مجاهدات النفس وهو ما عرف فيما بعد بعلم التصوف كما سيأتى القول .

وجاء بعد جيل الصحابة التابعون ثم جاء بعد التابعين تابعو التابعين . وهؤلاء هم خير القرون كما أخبرنا حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث قال : خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .

ظهور السادة الصوفية :

ولما اتسعت الفتوحات واختلط العرب بالعجم وترجمت كتب اليونان وتسربت فلسفتهم إلى المسلمين وكثرت الجدليات تبلبلت أفكار المسلمين وجنح كبراؤهم وأغنياؤهم وتبعهم عامة الناس إلى الغفلة والتقصير فى الطاعات بل واجترحوا السيئات وظهرت البدع التى لم تكن معروفة من قبل ولكن الله تعالى وفق فريقاً من الزهاد والعباد فحفظوا حدود الله ، وأبقوا على المثل العليا الإسلامية التى ورثوها عن أسلافهم الصالحين ودعوا إليها ثم ظهرت طائفة السادة الصوفية وعرفوا بهذا الاسم قبل المئتين من الهجرة وقد قاموا على الحق وهدفوا إلى تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن بالآداب الإسلامية الصحيحة والمحبة الخالصة لله والاشتغال به عما سواه لنيل السعادة الأبدية وهذا من فضل الله على الأمة المحمدية التى قال الله تعالى فيها : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» .

وقد أثرت دعوة الصوفية ونفخت فى أرواح لهم نهج المؤمنين وأحيت

لهم نهج السابقين الأولين غير أن بعض الفقهاء أسخطهم أن يروا أناساً يتحدثون عن الضمير ويحتكمون إلى قضائه فى حين أن الشريعة تحاسب على الأعمال الظاهرة وتعاقب الناس على آثامهم ولا حيلة لها مع النفاق فى الدين ، ولذلك حاولوا أن يبينوا أن حياة الصوفية لا محالة مفضيه بهم إلى الزيغ .

اعتصام الصوفية بالكتاب والسنة :

وما كان للصوفية أن يزيغوا وقد اعتصموا بالكتاب والسنة ودعوا إلى الاستمساك بهما وها هى أقوال أئمتهم تؤيد ذلك كل التأييد .

فقد قال أبو يزيد البسطامى :

« لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة »

وقال أبو القاسم الجنيد - وهو سيد هذه الطائفة وإمامهم .

« الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام » ، وقال أيضاً من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال شاه الكرمانى :

« من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة وعود نفسه أكل الحلال لم تخطىء له فراسة » .

وقال أبو حمزة البغدادى :

« من علم طريق الحق تعالى سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى أحواله وأفعاله وأقواله »

وبحسب الصوفية شرفاً أن يقول فيهم الإمام الشافعى رضى الله عنه صحبت الصوفية فأخذت عنهم كلمتين :

قولهم : نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

وقولهم : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك .

وأهل السنة لم يقولوا بروق المعتدلين من المتصوفة لا بل دأبوا على الاهتداء فى معاملاتهم وعباداتهم بمؤلفات الصوفية من مثل الرسائل لابن أبى الدنيا وقوت القلوب لأبى طالب المكى والأحياء للغزالى .

وقد قال شيخ التصوف الأكبر

الإمام محيي الدين بن عربي :

« لقد أجمع رجال التصوف جميعاً على أنه لا تحليل ولا تحريم بعد شريعة رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله عليه وإنما هو فهم يعطى فى القرآن لرجال الله » كما ثبت من حديث على ابن أبى طالب « وفيض من العلم يهبه الله لمن أطاعه فألهمه وجعل له نوراً »

وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة كذلك يحفظ علماء التصوف آدابها وروحها ، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد فى استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص، وترك أمره للاجتهاد والاستنباط فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آداباً وأذواقاً ونهجا للمريدين والعابدين .

وهؤلاء الصوفيـــة المعتصمون بالكتاب والسنة هم الذين ندعو إلى سلوك مسلكهم ، أما غيرهم ممن خرجوا عن جادة الدين فلا شأن لنا بهم مهما ادعوا أنهم صوفية .

الشريعة والحقيقة :

والصوفية حين نادوا بالحقيقة لم يخرجوا عن الشريعة وإنما هم يقولون إن الشريعه هى القيام بما أمر الله والحقيقة هى شهود لما قضى وقدر ، وأخفى وأظهر . ويقولون إن الشريعة هى حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره تعالى والحقيقة أيضاً شريعة من حيث أن المعارف به سبحانه وجبت بأمره ، كما يقولون إياك نعبد شريعة ، وإياك نستعين إقرار بالحقيقة

وهم حين تكلموا عن المقام والحال والقبض والبسط والهيبة والأنس والتواجد والوجد والجمع والفرق والفناء والبقاء والغيبة والحضور والصحو والسكر . إلخ ، إنما تكلموا عن مذاقات الخواص المراعين أنفاسهم مع الله ، والسالك مسالكهم يتذوق، ولا شك ما وصفوا ويتحقق منه وهو ساع إلى مقام الإحسان وهو أعلى المقامات فى الدين كما ورد فى الحديث الشريف الذى رواه مسلم عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ونصه:

« بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرنى عن الإسلام . فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال فأخبرنى عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال فأخبرنى عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال فأخبرنى عن أماراتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان . ثم انطلق فلبث مليا . ثم قال يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » .

وقد أوضح السيوطى رحمه الله ذلك بأن قال : الحقيقة سر الشريعة ولبها الخالص ، كما أن المعانى والبيان سر النحو ولطائفه . ، إلى أن قال : وأما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أساسها الوحى السماوى فى جملة ما أسسه من الدين المحمدى إذ هى بلا شك مقام الإحسان الذى هو أحد أركان الدين الثلاثة التى جعلها النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما بينها واحداً واحداً ديناً فقال : « إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » فغاية ماتدعو إليه الطريقة وتشير اليه هى الإحسان - بعد تصحيح الإسلام والإيمان - ليحرز الداخل فيها والمدعو إليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لحرزها والقائم بها السعادة الأبدية فى الدنيا والآخرة ، ومن أخل بمقام الإحسان الذى هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركنا من أركانه ، ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول فى الطريقة وسلوك التصوف وجوبا عينا

واستدل على الوجوب بما هو ظاهر عقلا ونقلا فقد بين القرآن الكريم من أحوال التصوف والطريقة بما فيه الكفاية فتكلم عن المراقبة والمحاسبة والتوبة والإنابة والذكر والفكر والمحبة والتوكل والرضا والتسليم والزهد والصبر والإيثار والصدق والمجاهدة ومخالفة الهوى والنفس ، وتكلم عن النفس اللوامة والأمارة والمطمئنة وعلى الأولياء والصالحين والصديقين وغير هذا مما يتكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضى الله عنهم . البحث مستمر

أهل الذكر

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إن لله ملائكة يطوفون فى الأرض ، يلتمسون أهل الذكر فاذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال : فيحفونهم باجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم ، مايقول عبادى ؟ قالوا : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك قال : فيقول هل رأونى ؟ قال : فيقولون : لا والله مارأوك ، قال : فيقول : وكيف لو رأونى ؟ يقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيدا وتحميداً ، وأكثر لك تسبيحاً ، قال : فيقول : فما يسألونى ؟ قالوا : يسألونك الجنة ، قال : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يارب مارأوها ، قال . فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها كانو أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة ، قال فمم يتعوذون ؟ قال : يقولون من النار ، قال : وهل رأوها ؟ قال . يقولون :لا والله يارب مارأوها قال : فكيف لو رأوها قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا ، وأشد لها مخافة ، قال : فيقول :

فأشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال يقول ملك من الملائكة :

فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجته ، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم :